الدفاع عن النفس
وأصل القضية ! (*)

تتفاوت حظوظ إدارات الدول من الفطانة، مثلما تتفاوت حظوظ الأفراد ! والفطنة أو الفطانة أوسع من الذكاء.. هى الحذق والمهارة وجودة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه، مستعملا كافة قدراته وملكاته من ذكاء وفهم وانتباه واستبصار، يتزايد نصيب الفرد منها - وكذا إدارات الدول - كلما اتسع رصيد العقل من تغذية المحيط، ومن توقد الذكاء وحقيقة الفطرة، هذه الفطنة لازمة لحسن الاستخلاص والتقدير، ولازمة أيضا لوحدة النظر الذى تدل ازدواجيته أو افتقاده المنطق على غياب أو قصور أو خفوت الفطنة أو الفطانة. من الفطنة عدم اللعب في المبادئ والأصول، لأن هذا اللعب عمره قصير، إن كسب جولة، فمآله إلى انكشاف محقق، وإلى اضطراب في المفاهيم والسلوك يصعب رتقه ويؤدى باللاعب إلى نتائج قد تلتف عليه، وتصيبه من حيث أراد أن يصيب الآخرين، أو تخذله فيما أراد فيه الانتصار لنفسه أو لحلفائه.. تذكرت هذه المعانى وأنا أراقب مندهشاً

(*) الأهرام ٢٧/٢/٢٠٠٨

تحدث الولايات المتحدة والمنضوين في أعطافها عن " الدفاع عن النفس " في مقام تبرير الإبادة الوحشية التى تشنها إسرائيل على الفلسطينيين في قطاع غزة.. غريب حتى النخاع إقحام نظرية " الدفاع عن النفس " في تبرير جرائم الحرب التى ترتكبها إسرائيل في القليل الباقى من فلسطين !!

طوال قرون من السجل الأسود للإمبراطوريات الغربية التى تقاسمت احتلال العالم، وانتهاك أوطانه وشعوبه، لم تنبس أمريكا ولا السائرون في أعطافها بشيء عن حق هذه الأوطان وشعوبها في الدفاع عن نفسها إزاء المخازى التى ارتكبتها إمبراطوريات الاحتلال التى تتشدق الآن بحقوق الإنسان !

أين كانت نظرية الدفاع عن النفس منذ بداية الاستعمار الإسرائيلى الاستيطانى لفلسطين، المقترن بحرب التفريغ والإبادة التى تتوالى مشاهدها أمام أمريكا والعالم منذ ما قبل ١٩٤٨ وحتى الآن ؟!.. أين كانت نظرية الدفاع عن النفس والوطن إزاء موجات الهجرة اليهودية الصهيونية إلى فلسطين ؟! لم ترفع أمريكا والغرب شعار دفاع الفلسطينيين عن وطنهم، ولا عن أنفسهم ودمائهم التى سالت في مذبحة دير ياسين سنة ١٩٤٨، ولا رفعوه - هذا الشعار ! - حين أغارت إسرائيل على غزة وقتلت من قتلتهم من الجنود المصريين في فبراير ١٩٥٥، ولا في العدوان الثلاثى على مصر وغزو أراضيها في أكتوبر ١٩٥٦، ولا في عدوان إسرائيل على مصر في يونيو ١٩٦٧، ولا في احتلال إسرائيل بهذه الحرب العدوانية أراضى ثلاث دول عربية فضلا عن احتلال البقعتين الباقيتين من الوطن الفلسطينى، لم تتحدث أمريكا وأتباعها عن حق الدفاع عن النفس عند استيلاء الإسرائيليين على الجنوب اللبنانى عام ١٩٧٨، ولا في مذبحة

صابرا وشاتيلا سبتمبر ١٩٨٢، ولا في مذبحة قانا التى نصبتها إسرائيل بلبنان - أبريل ١٩٩٦ - وضربت فيها، فيما ضربت، مركز قوات حفظ السلام للأمم المتحدة تعقبا للأطفال والشيوخ الذين لاذوا به من حمم النيران الإسرائيلية، ولا عند محاصرة إسرائيل لياسر عرفات في مقره في رام الله في ديسمبر ٢٠٠١، ولا عندما شنت غاراتها من الجو والبحر على الأراضى الفلسطينية المحتلة في يناير ٢٠٠٢، ولا عند حملة الإبادة التى شنتها مئات الدبابات الإسرائيلية وآلاف الجنود الذين اقتحموا مقر عرفات في رام الله في مارس ٢٠٠٢، ودون أن تبالى بقرار مجلس الأمن الذى تعمدت أمريكا أن يخلو من الارتباط بالفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة كيما تستطيع إسرائيل أن تضرب به عرض الحائط.. لم تتفضل الولايات المتحدة والمطويون في أعطافها بإعلان أن من حق الفلسطينيين والعرب بعامة الدفاع عن أنفسهم إزاء حملات الإبادة الإسرائيلية المتعاقبة وجرائم الحرب التى لم تقف فيها عند حد !.. كل ما تفضل به بعض الأوروبيين والأمريكيين هو الاحتجاج والتظاهر على الوحشية الإسرائيلية والاعتداء على الرئيس عرفات !! ولكن أمريكا الدولة لم تعلن احتجاجاً، ولا لوحت لإسرائيل بشيء عن حق العرب والفلسطينيين فى الدفاع عن أنفسهم إزاء هذه الإبادة !.. ولا حركت أمريكا وأتباعها ساكناً إزاء قتل إسرائيل لـ ٩٠٠ مدنى فى مخيم جنين، ولا استجابت الإدارة الأمريكية لنتيجة استفتاء الرأى العام الأمريكى التى أظهرت أن أكثر من ٦٠% يؤيدون قطع المساعدات الأمريكية عن إسرائيل إذا لم توقف فوراً عدوانها على الفلسطينيين الذين لم تتفضل الإدارة الأمريكية بالإفصاح عن أنهم فى موقف الدفاع عن النفس !! ولا أشارت أمريكا لهذه النظرية

إزاء استمرار إسرائيل فى تهويد القدس وإقامة المستعمرات على الأرض الفلسطينية المحتلة !.. ولا حركت أمريكا ساكناً لدفع إسرائيل إلى احترام اللجنة التى أوفدها كوفى عنان سكرتير الأمم المتحدة لتقصى الحقائق فى مخيم جنين وما حاق به من خراب وتدمير وإبادة وصفها الصليب الأحمر بأنها زلزال مدمر !.. ولما تجرأ مجلس الأمن وأصدر قراره ١٥٤٤ بإدانة إسرائيل عن اعتداءاتها على المدنيين الآمنين فى قطاع غزة وفى رفح فى مايو ٢٠٠٤، أبت الولايات المتحدة إلاّ أن تشذ عن العالم أجمع، وعن كامل أعضاء مجلس الأمن، فتمتنع عن التصويت حتى لا تمس مشاعر إسرائيل !!.. أكثر من هذا أقدمت عليه أمريكا فلم تبد أى بادرة احترام لحكم محكمة العدل الدولية فى يوليو ٢٠٠٤ بهدم الجدار العازل، ولا أبدت أى اعتبار لردود الأفعال الإنسانية ولا لبيان الاتحاد الأوروبى، ولا لقرار الجمعية العامة بأغلبية ساحقة بوجوب إذعان وتنفيذ إسرائيل لحكم المحكمة الدولية !.. لم تتذكر أمريكا شيئاً عن القانون الدولى، ولا استحضرته أو اهتزّ لها جفن عن حق الدفاع عن النفس إزاء حرب الإبادة الوحشية التى غزت بها إسرائيل لبنان فى يوليو ٢٠٠٦ !

لم تخرج الوِلايات المتحدة، والدائرون فى أعطافها، لتقول للعالم إن مقاومة الشعوب لاحتلال أوطانها دفاع عن النفس، ولا إن مقاومة الفلسطينيين لاغتصاب وطنهم وتفريغه وإبادة شعبه - دفاع عن النفس، ولم تخرج وأتباعها بنظرية الدفاع عن النفس إلاّ لتبارك بها إبادة إسرائيل للفلسطينيين فى قطاع غزة !.. لو تفطنت أمريكا لما رفعت هذا الشعار الذى يلتف من حيث لم تقصد ليرتد عليها وعلى إسرائيل ويعيد العالم إلى أصل القضية التى كاد يطمرها النسيان !.. الدفاع عن النفس فى المجال

الدولى، تكاد تحكمه ذات المبادئ التى تحكم الدفاع الشرعى بعامة.. خلاصته أنه حق يقرره القانون الدولى، يبيح به للمعتدى عليه استخدام القوة لصد عدوان مسلح، يشترط أن تكون لازمة لدرئه ومتناسبة مع قدره، وعلى أن يتوقف فوراً بمجرد أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليين. بهذه المبادئ والمعايير التى ارتضاها المجتمع الدولى فإن فلسطين الوطن، وفلسطين الشعب، كانا ولا يزالان فى حالة دفاع شرعى عن الوطن والنفس منذ بداية الغزو الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين وحتى الآن. فعل الاعتداء غير المشروع، ارتكبته وترتكبه إسرائيل ولا تزال ماضية فيه على قدم وساق لإبادة الشعب الفلسطينى ومحو فلسطين من خريطة العالم ! من الاستخفاف بالعقول وضرب المبادئ ضرباً يحول العالم إلى غابة - أن تترك أمريكا كل هذه المشاهد المتتالية لحرب الإبادة الإسرائيلية الجارية منذ أكثر من نصف قرن على فلسطين وشعبها، ثم تصف المقاومة بأنها إرهاب، والدفاع عن الأوطان بأنه اعتداء، ويصاب منطقها بالعمى الضرير حين تصنف جرائم الحرب التى ترتكبها إسرائيل ضد المدنيين العزل، بأنها دفاع عن النفس، وتجهض المشروع العربى المقدم لمجلس الأمن لوقف العدوان الإسرائيلى ! من شروط الدفاع عن النفس أن يتجه إلى مصدر العدوان إن كان هناك عدوان، وأن يلتزم بالتناسب وبالتأقيت، وإلاّ بات جريمة حرب صريحة جرمها القانون الدولى، ووضع الإبادة الجماعية والجرائم الإنسانية على رأس قائمة جرائم الحرب، وأقام المجتمع الدولى المحاكم الدولية الخاصة لتعقب أمثال هذه الجرائم ليتوجها بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة للمساءلة والحساب عن جرائم الإبادة والجرائم ضد الإنسانية وجرائم

الحرب وجريمة العدوان. كل ذلك تمارسه إسرائيل على الواسع من أكثر من نصف قرن، بيد أن آفة المجتمع الدولى أن القوة تحكم القانون، وأن مقاليد هذه القوة بيد الولايات المتحدة التى لا تتفطن وهى ترفع لإسرائيل شعار الدفاع عن النفس، أنها تعيد العالم إلى أصل القضية الفلسطينية وتذكره بأن الجميع تواطأوا على حرمان الشعب الفلسطينى من حقه المشروع فى الدفاع عن النفس والوطن !